


Anbar University Journal
Of Islamic Sciences
P. ISSN: 2071-6028 E. ISSN: 2706-8722

المجلد ١٢ - العدد ٢ - حزيران ٢٠٢١ م | Volume 12- Issue 2- June 2021

التَّذييل بأسماء الله تعالى وصفاته مناسباته ودلالته سورة الأنفال أنموذجًا

١ – أ.د. إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الزهراني

جامعة أم القرى /كلية الدعوة وأصول الدين

١ – الإيميل:
ibraheem56@gmail.com

DOI: 10.34278/aujis.2021.170741

تاريخ استلام البحث: ١٢/ ١/ ٢٠٢١م

تاريخ قبول البحث للنشر: ١/ ٣/ ٢٠٢١م

تاريخ نشر البحث: ١/٦/ ٢٠٢١م

الكلمات المفتاحية:
التَّذييل، صفاته، مناسباته

الملخص

يتناول هذا البحث صورة من صور الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ألا وهو تذييل الآيات القرآنيَّة بأسماء الله تعالى وصفاته، يبتدئ البحث بدراسة عن علم المناسبات، وعن أسلوب التَّذييل للتَّعريف به وبيان صلته بعلم المناسبات، ثمَّ بعد ذلك دراسة تطبيقيَّة على سورة الأنفال باختيار الآيات المذَيَّلة بأسماء الله تعالى وصفاته وبيان الصّلة بينها وبين مضامين الآيات المذيَّلة بها، ثمَّ ينتهي البحث بالخاتمة، وفيها أبرز النتائج والتَّوصيات.

THE CONTEXT AND MEANING OF THE QURANIC APPENDING OF THE NAMES AND ATTRIBUTES OF ALLAH IN THE CHAPTER OF AL-ANFAL (THE SPOILS)

[1] **Prof. Dr. Ibrahim bin Abdullah bin Ibrahim Al-Zahrani**

Umm Al-Qura University/ College of Da`wah and Fundamentals of Religion

Abstract:

This research aims to explore the poetic rhetoric in the Quran that is manifested in the discipline known as Ilm AlTatheel (Quranic Appending), that studies the appending of a verse with the mention of some of the 99 names and attributes of Allah. The research opens with a study of what is known as Ilm Munasabat (co-relation discipline), a discipline that focuses on the correlation between one chapter of the Quran and what comes before or after it, or the correlation between one verse of the Quran and what comes before or after it, or the correlation between the beginning of the verse itself and its ending. The research will also explain the stylistic approach of the Quranic Appending by defining it, relating it to the correlation discipline. This research will also provide an applicative study on chapter eight from the Quran known as the chapter of Al-Anfal (The Spoils) by selecting verses that are appended with some of the names and attributes of Allah and showing the correlation between those verses and the hidden semantic meanings of appending them with some of the names and attributes of Allah. The research then is followed by the conclusion, results and recommendations.

1: Email:

ibraheem56@gmail.com

DOI: 10.34278/aujis.2021.170741

Submitted: 12 / 1/2021

Accepted: 1/3 /2021

Published: 1 /6 /2021

Keywords:
appendix, its attributes, its events



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

اللهمَّ لك الحمد دائماً ثابتاً يانور السَّماوات والأرض، أشهد ألاَّ إله إلاَّ أنت، هديتنا بكتابك الكريم إلى دينك القويم، وشرعك الحكيم، وأشهد أنَّ نبيِّنا وحبيبنا وسيِّدنا محمَّداً عبدُك ورسولُك الذي أخرجتنا به من الظلمات إلى النُّور، صلِّ اللهمَّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسان ماسبَّحت بحمدك البريَّات، واستنارت بنورك الكائنات... أمَّا بعد:

فإنَّ هذا الكتاب الكريم أعجزت آياتُه ملأً كانت الفصاحةُ زينتَهم، والبلاغةُ حليَتَهم، كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد. هذا وإنَّ من صور الإعجاز الباهرة التي اشتمل عليها القرآن الكريم تذييل الآيات بأسماء الله عزَّ وجلَّ وصفاتِه.

جعلت هذا البحث من:

١- مقدِّمة.

٢- المبحث الأوَّل: التعريف بعلم المناسبات والتذييل والصلة بينهما، وفيه مطلبان:

أ - المطلب الأوَّل: التَّعريف بعلم المناسبات، وفائدته.

ب- المطلب الثَّاني: التَّعريف بالتَّذييل، وصلته بعلم المناسبات.

٣- المبحث الثَّاني: التَّذييل بأسماء الله عزَّ وجلَّ وصفاته في سورة الأنفال، دراسة تطبيقيَّة.

٤- الخاتمة

٥- المصادر

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

المبحث الأول:

التعريف بعلم المناسبات والتذييل والصلة بينهما

المطلب الأول:

التعريف بعلم المناسبات وفائدته

المناسبات لغة: جمع مناسبة، والمناسبة هي المشاكلة والمقاربة(١).

واصطلاحاً: الرابطة بين شيئين بوجه من الوجوه(٢).

والمراد بها في علم التفسير: ارتباط السُّورة بماقبلها وبعدها، والآية بماقبلها وبعدها،، وخاتمة السورة بفاتحتها(٣).

فائدته: ربط الكلام بعضه ببعض(٤)، وإظهار صورة من صور الإعجاز في القرآن الكريم، ولو تكلَّم أحد بكلام لا يرتبط بعضه ببعض لعُدَّ ذلك خللاً فيه، فكيف به في كتاب الله الكريم المعجز المنزَّل على العرب أفصح الأمم.

مبنى علم المناسبات ومستقاه:

إنَّ هذا العلم الجليل قائم على التَّأمُّل في كتاب الله تعالى، والتَّذوُّق البياني الذي يمتلكه المفسِّر، ولهذا فإنَّنا نجد العلماء الذين اعتنوا بهذا العلم تختلف لديهم وجوه الارتباط بين سورة وسورة، أو آية وآية.

موقف العلماء من علم المناسبات:

قال صاحب الإتقان: (وعلم المناسبة علم شريف، قلَّ اعتناء المفسِّرين به لدقَّته)(٥).

والعلماء تختلف مواقفهم من هذا العلم، فمنهم من لم يكن له فيه نظر وعناية،

---

(١) لسان العرب: ١١٨/١، والبرهان: ٣٥/١، والإتقان: ٣٢٣/٣.

(٢) دراسات في التَّفسير الموضوعي للقرآن الكريم: ٨٣.

(٣) دراسات في التَّفسير الموضوعي للقرآن الكريم: ٨٣، والبرهان: ٣٥/٣-٣٨، والإتقان: ٣٢٣/٣.

(٤) البرهان: ٣٥/٣، الإتقان: ٣٢٣/٣.

(٥) الإتقان: ٣٢٣/٣.

وعلى هذا كثير من المفسِّرين، ومنهم من جعل له في تفسيره عناية ونصيباً، كالزَّمخشري، والرَّازي، وأبي السُّعود، والألوسي، وابن عاشور، ومنهم من بالغ فيه وتكلَّف كالبقاعي في كتابه نظم الدُّرر، ولعلَّ المسلك الصحيح في هذا الفن التَّوسُّط وعدم الإفراط بحيث لايتكلَّف الإنسان من المناسبة ما تحتمله النُّصوص، وعدم التَّفريط والإهمال، فقد ترى من المناسبات شيئاً مُلِحَّاً يدعو القارئ ويصيح به لقوَّة وجوده، ولارتباطه الشَّديد، و الله أعلم.

بعض المؤلَّفات فيه:

١- البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن، لأبي جعفر أحمد بن الزُّبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ).

٢- نظم الدُّرر في تناسب الآي والسُّور، لبرهان الدِّين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ).

٣- تناسق الدُّرر في تناسب السُّور، لأبي الفضل جلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي (ت٩١١هـ).

المطلب الثاني:

التَّعريف بالتَّذييل وأهميته، وصلته بعلم المناسبات

التَّذييل لغة: آخر كلِّ شيء. وذيل الثَّوب والإزار، ما جُرَّ منه إذا أُسبِلَ، وذيل المرأة لكلِّ ثوب تلبسه إذا جرَّته على الأرض من خلفها(١).

واصطلاحاً: أن يُؤتى بجملة عقب جملة، والثَّانية تشتمل على المعنى الأوَّل لتأكيد منطوقه أو مفهومه، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرَّر عند من فهمه(٢).

أمثلته:

أ ــ من القرآن الكريم:

١ــ قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ (سورة سبأ).

(١) لسان العرب: ٥/٧٤، والبرهان: ٣/٣٨٠.

(٢) الإتقان: ٣/٢٢١.

٢ــ قول الله ﷻ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ (سورةالإسراء)

ب ــ من السُّنَّة النَّبويَّة:

قول النَّبيِّ ﷺ: «من همَّ بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشراً، و من همَّ بسيِّئة ولم يعملها لم تُكتب عليه، فإن عملها كُتبت عليه سيِّئة واحدة، ولا يهلك على الله إلاَّ هالك»(١).

ج ــ من الشِّعر:

قول الشَّاعر(٢):

ولست بمستبق أخا لا تلمه ** على شعث أيُّ الرِّجال المهذَّب؟

والمراد بالتَّذييل هنا: ختم آيات القرآن الكريم بأسماء الله تعالى وصفاته، وبيان المناسبة بينها وبين ما قبلها من الآية، كقول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (سورة الزمر).

فمن المناسب هنا ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ للإغراء والحثِّ على التَّوبة إلى الله واستغفاره والرُّجوع إليه بعد الإسراف والإغراق في الذُنوب والعصيان.

أهمِّيَّة دراسة تذييل الآيات بأسماء الله وصفاته:

الأصل في التَّذييل بأسماء الله وصفاته أنَّه تفسير وإيضاح لمعنى الآية، وعرضٌ للمحصِّلة ومضامين الآيات، وبيان الغاية من سرد الوقائع بصور مختلفة في النَّص القرآني، فهي من هذا الجانب تفسير القرآن بالقرآن، وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ تفسير آية بما ختمت له من الأسماء والصِّفات له شأن آخر مهمٌّ في غاية الأهميَّة، إذ

---

(١) رواه الدَّارمي في سُننه برقم: ٢٧٨٦، قال الشيخ شُعيب: إسناده صحيح على شرط مُسْلم، رجاله ثِقات رجال الشَّيخين، غير جعفر بن سليمان فمن رجال مُسْلم، ٤١٣/٢.

(٢) هو النَّابغة الذبياني، ينظر: ديوانه: ص٢٠.

هو تفسير بتوحيد الله بأسمائه التي ما من شيء فيه تشريع من أمر ونهي، أو تربية للنَّفس وتزكية لأخلاقها، أو تنظيم للأسرة أو المجتمع إلاَّ وله ارتباط بأسماء الله وصفاته، بل ما من شيء في الوجود إلاَّ وعليه أثر من آثار أسماء الله الحسنى وصفاته، فهي تقرير للتَّشريع وإغراء وحضٌّ على تنفيذه والتزامه، وتهديد وتحذير لمن خالف وتعدَّى، وتربية للنَّفس وربطها بخالقها حيت تعلم أنَّ كل شيء في حياتها من اعتقاد وقول وعمل، وحركة وسكون، ورغبة ورهبة، وإقدام وإحجام محكوم بأسماء الله وصفاته.

فالرَّجل مثلاً إذا رأى نفسه قادراً عالياً على امرأته كبيراً، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النِّساء: ٣٤)، خاف الله في أهله وراقبه، وانضبطت حياة الأسرة، وإذا أراد أحد أن يعصي الله وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢)، ارعوى وارتدع، وإن تجاوز وندم وقرأ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزُّمر: ٥٣)، أقبل على الله ورجع إليه، وهكذا.

علاقة التَّذييل بعلم المناسبات:

التَّذييل هو جزء من علم المناسبات، ويُعنى هنا ببيان وجه الارتباط بين أسماء الله تعالى وأوصافه التي ختمت بها الآيات وبين ما تضمنَّته الآيات من معانٍ، ولمَّا كانت هذه صلته بعلم المناسبات كان مبناه ومستقاه أيضاً كعلم المناسبات معتمداً على التَّأمُّل في كلام الله ﷻ.

أقسام التَّذييل بأسماء الله وصفاته في القرآن الكريم:

إذا نظرنا إلى أسماء الله تعالى وصفاته التي ختم بها كثير من الآيات في القرآن الكريم وجدناها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوَّل: أن تكون الأسماء والصِّفات موافقة لما قبلها من الكلام، بحيث يجد القارئ والمتأمِّل وجه الارتباط بينهما واضحاً ظاهراً، كقول الله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ (سورة البقرة).

فالله ﷻ بسعته وعلمه بما ينفقه عباده يخلف عليهم ما أنفقوا، وكقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (سورة الزمر).

القسم الثَّاني: أن تكون الأسماء والصِّفات مخالفة لما قبلها من الكلام في الآية، بحيث قد يصعب على المفسِّر استخراج وجه الارتباط بينها وبين ما قبلها، ولا يعني هذا عدم وجود الرَّابط، بل هو موجود ولكنَّه لا يظهر لكل أحد، وإنَّما يظهر لأصحاب النَّظر الدَّقيق، والفكر الثَّاقب العميق، ومن أمثلة هذا القسم قول الله ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (سورة المائدة).

قد يتساءل المرؤ: لِمَ ختمت بقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، بعد ذكر العذاب والمغفرة، وكان من المرتقب عند السَّامع أن تختم بوصفي المغفرة والرَّحمة (الغفور الرَّحيم).

وجواب هذا: لمَّا كان عيسى عليه السلام في كلامه مع الله ﷻ في سياق البراءة ممَّا أحدثه النَّصارى بعد وفاته، وتفويض أمرهم إلى الله ﷻ كأنَّه يقول: إن تعذِّبهم فلن يمنعهم أحد، وإن تمنحهم المغفرة بعد أن فعلوا ما فعلوا فلن يحول بينك وبين ذلك أحد لأنَّك العزيز الغالب الذي يفعل ما يشاء، الحكيم في أقوالك وأفعالك(١).

ومثل هذا كثير، من ذلك ما ذُكِرَ عن الأصمعي حين قرأ قول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (المائدة: ٣٨)، فأخطأ وقرأ: (والله غفور رحيم)، فقال له الأعرابي: أعد، فأعاد فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، فقال الأعرابي: الآن أصبت. فقال: كيف عرفت؟ فقال: يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع(٢).

---

(١) تفسير المنار: ٢٣٠/٧.

(٢) التَّفسير الكبير: ١٨١/١١.

المبحث الثاني:

التَّذييل بأسماء الله تعالى وصفاته في سورة الأنفال دراسة تطبيقيَّة

١- قوله ﷻ: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (سورة آل عمران).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

استغاث المؤمنون ربهم يوم بدر، فطلبوا منه مدداً يؤيدهم ويقويهم، فاستجاب الله ﷻ لهم فأمدَّهم بألف من الملائكة متتابعين، وما جعل هذا الإمداد للمؤمنين إلاَّ بشارة لهم بالنَّصر، وقد كان يكفي أن يضمن الله لهم النَّصر على عدوهم، لكن لمَّا كان يوم بدر أوَّل يوم يلقى فيه المسلمون عدواً قوياً، وجيشاً مجهَّزاً، وهم قليلٌ كانوا في حاجة إلى التَّبشير بإمداد الملائكة، لأنَّ النَّفوس تطمئن إلى الأشياء المحسوسة أكثر من اطمئنانها إلى المعنويات، فجمع الله لهم بين هاتين المنحتين الكريمتين، ثمَّ قال ﷻ: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، وأمدَّهم بالملائكة بشرى لهم، ولتطمئن به قلوبهم، وقدَّم الجار والمجرور على ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ ليفيد الاختصاص[١]، أي لتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا تعريض لهم بما اعتراهم من الوجل من الطَّائفة ذات الشَّوكة، وبقناعتهم من الغُنْمِ الذي كان مع العير التي لا تحمل السلاح، ثمَّ بيَّنت الآية أنَّ النَّصر من عند الله لا من عند غيره، وأن الإنسان بما عنده من قوَّة وعدَّة لن ينتصر على عدوه إذا لم يكتب الله له النَّصر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ العزيز الغالب الذي لا يُغْلَب، فلا يُغْلَبُ جنده، ومن كتب الله له النَّصر، الحكيم الذي يعلم من يستحق النَّصر وكيف يُعْطَاهُ[٢].

وخُتمت الآية هنا بأسلوب مغاير لما ختمت به شبيهتها في سورة آل عمران: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾؛ لأنَّ الآية في الأنفال تقدَّمتها وعود من عند

---

(١) التَّحرير والتَّنوير: ٩/٣٤.

(٢) معالم التَّنزيل: ٥١٥، والتَّحرير والتَّنوير: ٩/٣٤.

الله ﷻ: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ ﴾،(الأنفال:٧). ثمَّ قولُه: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ (الأنفال:٧)، ثمَّ قولُه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾ (الأنفال:٧).

فناسبها تأكيد هاتين الصفتين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، وأمَّا في آية آل عمران فلم يتقدَّم قبلها كما في هذه الآية، فجيء بصفتي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ نعتاً كريماً لله ﷻ[١].

وخَتْمُ آية الأنفال بصفتي العزَّة والحكمة ظاهر، فالعزيز الذي غلبت عزَّته كلَّ شيء، وخضع لها الوجود كلُّهُ، فلن يقع في الكون شيء يقاوم عزَّة الله، والحكيم الذي يُدبِّر شؤون الخلق ويُجْريها ويضع كلَّ شيء منها في موضعه، وبهذا تهدأ النُّفوس وتطمئن القلوب، وتسكن الجوارح، ويتعلَّق العبد كله بالله ﷻ مطمئنَّاً إليه واثقاً من أنَّه لن يصيبه شيء لم يأمر الله به، ولن يصيبه شيء إلاَّ بحكمة الله، والله ﷻ لا يقضي إلاَّ بالحق، والله تعالى أعلم.

٢- قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝١٣﴾ (الأنفال: ١٣).

بيان معنى غريب الآية:

«شَآقُّواْ »: المشاقَّة: المخالفة، والعداوة بعصيان وعناد، ولمَّا كان المخالف لله ورسوله كان كأنَّه في شِقٍّ آخر، أي في ناحية أخرى[٢].

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

ذكرت الآيات الكريمة قبل هذه الآية صوراً من تأييد الله لعباده المؤمنين يوم بدر من إمداده إيَّاهم بالملائكة، وطمأنة قلوبهم، وتبشيرهم بالنَّصر، وتغشيتهم بالنُّعاس آمَنَة من الله لهم، وإنزال الماء عليهم من السَّماء ليطهِّرهم به، ودحره لوساوس الشَّيطان التي كان يخوِّفهم بها، ورَبْطِه على قلوبهم، وتثبيته أقدامَهم، وصوراً من

(١) ملاك التَّأويل: ٣١٥/١

(٢) الكشَّاف: ٤٠٧، والتَّحرير والتَّنوير: ٤١/٩.

خذلان الله للمشركين بإلقاء الرُّعب في قلوبه، وضرب الأعناق، وقطع البَنَان، بعد ذكر هذا كلِّه[1] قالت الآية الكريمة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ذلك التَّأييد من الله لعباده المؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب مشاقَّة المشركين لله ورسوله ﷺ، ومشاقَّتهم لله ورسوله ﷺ بأن عادَوا دين الله وأهله، وصدُّوا عن سبيل الله ووقفوا صفَّاً ضدَّ من أراد إعلاء كلمة الله، ففعل الله بهم ما فعل بسبب مشاقَّتهم له ولرسوله ﷺ، ثمَّ أطلقت الآية تهديداً بلهجة صارخة حاسمة لتجعل منها قاعدة دائمة، وسُنَّةً ثابتةً: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، ولمَّا كان الأمر كذلك من جعل هذا التَّهديد سنَّة دائمة، وقاعدة مطلقة بأن ينزل الله عقابه الشَّديد لمن شاقَّه وشاقَّ رسوله ﷺ وصدَّ عن سبيله، وعادى أولياءه وجنده، جيء في ختم الآية بمجموعة من المؤكِّدات:

١. جيء بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جواباً للشرط، وكان من الممكن أن يقال ومن يشاقق الله ورسوله خذله الله، أو دمَّره، أو غلبه وعاقبه، إنَّ الله شديد العقاب، ولكن مواجهة المشاقِّين لله ورسوله ﷺ بجواب الشَّرط بهذه الصِّفة من صفات الله أقوى في الرَّدع والزَّجر والتَّخويف والتَّحذير.
٢. جيء بـــ ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة.
٣. الإظهار في موضع الإضمار، حيث قالت الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ولم تقل: فإنَّه.
٤. اسميَّة الجملة في جواب الشَّرط، ولم يأت جواب الشِّرط جملة فعليَّة.

وختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ظاهر المناسبة واضح الدَّلالة في الحثِّ الشَّديد على طاعة الله ورسوله ﷺ، والخوف والحذر الشَّديد من مخالفتهما ومشاقَّتهما، ومعاداة أولياء الله، والله أعلم.

٣- قوله ﷻ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

(١) تفسير المنار: ٥٣١/٩.

رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (الأنفال: ١٧).

سبب نزول الآية:

١. لـمَّا انصرف المسلمون عن القتال كان الرَّجل منهم يقول للآخر: أنا قتلت فلاناً، ويقول الآخر مثله، فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[١].

٢. حرَّض النَّبيُّ ﷺ المسلمين يوم بدر على القتال، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلمَّا التقى الجمعان تناول الرسول ﷺ كفَّاً من حصى عليه تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه. فلم يبقَ منهم مشرك إلاَّ ودخل في عينيه وفمه ومنخريه منها شيء، فانهزموا، ثمَّ نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٢].

بيان معنى غريب الآية:

«وَلِيُبْلِيَ»: أصلها من البلاء، ثمَّ عُدِّيَ بالهمز (أبلى)، ليقاتلوا ويصيبوا من عدوهم[٣].

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

إنَّ ما حصل يوم بدر للمسلمين من قتلهم لأعدائهم المشركين من قريش لم يكن ذلك إلاَّ بإعانة الله لهم، وتوفيقهم إليه، فهو من النَّصر الذي وعدهم الله إيَّاه، فالفضل في ذلك لله ﷻ، فهو الذي قتلهم وخذَلَ من لم يُقْتَلْ منهم، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، فإنَّ المفسرين يذهبون في تفسير الرَّمي فيها

(١) معالم التَّنزيل: ٥١٨.

(٢) المصدر السَّابق.

(٣) التَّحرير والتَّنوير: ٥٢/٥.

إلى ما ورد في نزولها، ولئن كان الأمر كذلك فإنَّ دلالة الآية أعمُّ، فهي تمثِّل تدبير الله للأمر كلِّه من وراء الحركة الظَّاهرة للنَّبي ﷺ والمسلمين معه، ولذلك جاء بعدها قوله ﷻ: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾، أي قتل الله المشركين وأصاب أعينهم ليهزمهم، وليرزق المسلمين من عنده أن يُبْلُوا البلاء الحسن الذي ينالون به عند الله أجراً عظيماً[١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سمع الله دعاء المسلمين واستغاثتهم ذلك اليوم، وتضرَّعهم إليه، وعلم صدق حالهم، وصدقهم وإخلاصهم في نيَّتهم، ولمَّا كانت هذه الأمور من الخفاء بمنزلة وهي إرادته سبحانه للمؤمنين أن يُبْلُوا بلاءً حسناً، وكان الأمر كذلك من الشِّدَّة يوم بدر أُكِّدَت هذه الجملة بـــ«إِنَّ»، والله أعلم.

ومناسبة ختمها بقوله: «سَمِيعٌ عَلِيمٌ» فيها ربط العبد العامل في سبيل الله بربه الذي يسمع منه دعاءه ونداءه واستغاثته، وأنَّ الله يعلم حاله، وما هو فيه، فلن يتخلَّى عنه، وسيؤيِّده، ويكتب له الخير والنَّصر والتَّوفيق إنْ علم منه إخلاصه وصدقه في نيته، ففيها حثٌّ على دعاء الله وندائه وإخلاص النيَّة له ﷻ الذي لا يخفى عليه شيء، والله أعلم.

٤- قوله ﷻ: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾.

سبب نزول الآية:

قال أبو جهل يوم بدر: اللهمَّ أينا كان أقطع للرَّحم، وأتانا بما لا يعرف فَأَحِنْهُ الغداة. وكان استفتاحاً منه فنزلت الآية: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾[٢].

بيان معنى غريب الآية:

﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾: إن تستنتصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم

---

(١) التَّحرير والتَّنوير: ٥٢/٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢٨٤/٢.

وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم[١].

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

تخاطب الآية مشركي مكَّة الذين جاؤوا يصدُّون عن سبيل الله ويقاتلون أولياءه، وتقول لهم: إنْ تطلبوا منا النصر على أضلِّ الفريقين منكم وأقطعكم للرَّحم، فقد جاءكم ما سألتم، وستكون الدَّائرة عليكم تصديقاً لاستفتاحكم حين تعلمون أنَّكم معشر المشركين أضلُّ الفريقين، وأقطعكم للرَّحم، ثمَّ ترغبهم الآية في الانتهاء عن ضلالتهم والعدول عنها إلى مسلك الخير، ومع التَّرغيب التَّرهيب فتقول: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ والعاقبة معروفة، والنتيجة محسومة لايؤثِّر فيها جمعكم كَثُرَ أو قلَّ: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ وماذا تغني الكثرة إذا لم يكن من الله نصر وتأييد؟!

ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّهم مع الله، والله ﷻ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ (سورة محمد)، وهؤلاء المؤمنون في أصل خروجهم لم يكن للقتال، ولكن دعت الظروف إليه، وأطاعوا النَّبيَّ ﷺ وأسمعوه مايسرُّه في حين أنَّ التَّكافؤ بينهم وبين عدوهم غير متوفِّر، ولمَّا كانوا كذلك كانوا في حاجة إلى طمأنة الله لهم فبشَّرهم الله ﷻ بمعيَّته لهم، هذا ليعرف النَّاس قيمة الإيمان بالله ، وقصَّة بدر خير نموذج لذلك، والله أعلم.

٥- قوله ﷻ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٥﴾ (سورة الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

جاءت هذه الآية بعد قوله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ (الأنفال)، فالآية حرَّضت على الاستجابة لله ولرسوله ﷺ، وجاءت الآية الثَّانيَّة بعد تحذِّر من ضدِّ الاستجابة لله وللرَّسول ﷺ، فإنَّ النَّاس إن لم يستجيبوا لله وللرَّسول ﷺ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/٢٨٤.

ولم يكونوا في ذلك على كلمة واحدة دبَّ بينهم الاختلاف واضطربت أحوالهم ، واختلَّ نظام جماعتهم ووحدتهم باختلاف الآراء وتفريق الكلمة، وهذا هو الحال المعبَّر عنه بالفتنة(١)، والفتن التي تحلُّ بالنَّاس لها مردود على إفساد المجتمع، والمجتمع إذا فسد عوقب بشدَّة، والله ﷻ يمهل النَّاس ثمَّ يأخذهم إنْ لم يتوبوا، وإنْ أخذهم فأخْذُ عزيز مقتدر، لأنَّه أمهلهم ليتوبوا ولكنَّهم أمعنوا في التَّمرُّد على الله ﷻ فاستحقُّوا أن يقابلهم الله بعقاب من عنده، وعلى المجتمع أن يواجه الفتن بالإصلاح، حتَّى وإن كثرت وطغت، وأقلُّ ما في ذلك الإعذار إلى الله ﷻ كما قال ﷻ في شأن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ (سورة الأعراف).

٦- قوله ﷻ: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (سورة الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أمر الله في هذه الآية الكريمة بقتال المشركين الذين يؤذون المسلمين ويفتنونهم في دينهم حتَّى تنقطع فتنتهم وأذاهم إمَّا بإسلامهم، وإمَّا بإعدامهم(٢)، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، أي قاتلوهم حتَّى يضمحلَّ عنهم كل دين سوى الإسلام، ولا يبقى فيهم إلاَّ دين الإسلام وحده، وزيدت هذه الآية بالتوكيد بقوله: «كُلُّهُۥ» على نظيرتها في آية البقرة: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة:١٩٣)، فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بـــه لله تعالى لئلاَّ يُتَوَهَّم الاقتناع بإسلام غالب المشركين، فلمَّا تقرَّر معنى العموم، وصار نصَّاً من هذه الآية

(١) التَّحرير والتَّنوير: ٧١/٩.
(٢) التَّحرير والتَّنوير: ٩٩/٩.

عُدِلَ عن إعادته في آية البقرة طلباً للإيجاز(١)، فإن انتهوا عن فتنة المسلمين في دينهم، وانتهوا عن الكفر بإسلامهم، فإنَّ الله يثيبهم ويحسن جزاءهم، وختمت هذه بقوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ حيث جاءت جواباً للشَّرط لتكون أقوى من أن تكون تذييلاً بعد مجيء الجواب بغيرها، وأُكِّدَت بـ«إنَّ» واسميَّة الجملة، وقد ينتهي هؤلاء المشركون والمؤمنون لا يعلمون بحقيقة انتهائهم، قد ينتهون خوفاً فلا يكونون صادقين في انتهائهم، ولكنَّ الله يعلم حقائق الأمور وبواطنها، والمسلمون إذا رأوا انتهاء عدوهم وقفوا ولا يبحثون عمَّا وراء ذلك، ويتركونها لله الذي يعلم السرائر، وإن كان انتهاؤهم حسناً فلهم من الله الجزاء الحسن، والله تعالى أعلم.

٧- قوله ﷻ: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

بعد أن ذكرت الآية السَّابقة بقتال المشركين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويؤذونهم، قسمت حال المشركين بعد قتالهم قسمين:

القسم الأوَّل: ذكرته الآية السَّابقة، وهو انتهاؤهم عن فتنة المسلمين ومحاربتهم، في دينهم.

القسم الثَّاني: ذكرته هذه الآية الكريمة، وهو أن يتولَّوا عن سبيل الله، ويستمرُّوا على خلاف المسلمين ومحاربتهم(٢)، وهو المعنيُّ بالكلام هنا، وموقف المسلمين من عدوهم في هذه الحالة أن يعلموا أنَّ الله مولاهم وسيدهم وناصرهم، وأن يثقوا به ﷻ، فالله نِعْمَ من تولاَّه العبد، ونِعَمَ النَّصير لمن استنصر به، فالآية تطمئن المسلمين وكأنَّها تقول لهم: لن تخيبوا وأنتم متمسِّكون بالله، ولن تنهزموا وأنتم مستنصرون بالله، وجماليَّة النَّصر نفسُها عنوان للمُنْعِم بالنَّصر، جماليَّة يتغنَّى بها الرُّكْبان لأنَّ المسلمين في أحيانٍ كثيرة يكونون أقلَّ من عدوِّهم عدداً وعُدَّة حَسَبَ

---

(١) التَّحرير والتَّنوير: ٩/٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/٢٩٦.

الظُّروف المتقلِّبة، لكنَّ الله ﷻ مولاهم في كلِّ الأحوال المختلفة والظُّروف المتغيِّرة، ونصيرهم فيها وهم يرفعون راية الهُدى للنَّاس يدعونهم إلى الله، والله تعالى أعلم.

٨- قوله ﷻ: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾ (سورة الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

عادت هذه الآية إلى ما افتتحت به السُّورة من إجمال حكم الأنفال(١)، فجاءت لتبين ما أجمل وتفصِّله بحيث لا يبقى فيه خفاء على أحد من المسلمين، وقد اختلف الفقهاء اختلافاً كثيراً في معنى الغنيمة والأنفال والفيء، وليس المقصود هنا بيان ما اختلفوا فيه، فليس هذا محل بحثه، ويُقال هنا: الحكم العام الذي تضمَّنه النَّص القرآني في شأن الغنيمة أن تُردَّ أربعة أخماس كل شيء من الغنيمة إلى المقاتلين، واستبقاء الخُمس يتصرَّف فيه رسول الله ﷺ والأئمَّة المسلمون القائمون على شريعة الله المجاهدون في سبيل الله من بعده في هذه المصارف: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وتحضُّ الآية المخاطبين على العمل بما في هذه الآية من الأحكام والتَّشريعات بقولها: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، وهم مؤمنون بالله وبما أنزل على النَّبيِّ ﷺ يوم بدر الذي سُمِّيَ يوم الفرقان، لأنَّه فرَّق بين الحق والباطل، وفصل حال المسلمين عن ذي قبل، جعلهم جمعاً بعد أن كانوا مستضعفين، فهزموا جمع الكُفْر ودحروه، فأعزَّهم الله بيوم بدر وجعله نقطة تحوُّل في حياتهم، كسر به شوكة الكفر، وقوَّى به شوكتهم، ولكنَّ الآية تُلْهِبُ مشاعرهم وتستجيش إيمانهم فتقول: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾.

ومناسبة ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال:٤١)، عجيبة، فإنَّ آيات الأحكام والتَّشريعات تختم في كثير من الأحيان بوصف الله ﷻ بالعلم

(١) التَّحرير والتَّنوير: ١٠١/٩.

والحكمة، أمَّا هنا فقد خُتمت بوصف الله سبحانه بأنَّه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والسِّرُّ في ذلك -والله أعلم- اعتبار حال المسلمين حين خروجهم كما قال ﷻ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ (الأنفال)، وموازنة حالهم السَّابق بحالهم بعد انتهاء غزوة بدر، فقد كان بعضهم يجادل في أمر الخروج لملاقاة النفير إذ كانوا يريدون ملاقاة العير، ولكنَّ الأمر تغيَّر وتحوَّلت وجهته، كانوا يجادلون في هذا وهم قلَّة لا طاقة لهم بجيش قريش المجهَّز، وأصل خروج المسلمين لم يكن للقتال كما تقدَّم، ثمَّ تحوَّل الجدال بين بعضهم والخلاف على تقسيم الغنائم، فيالها من نقلة عجيبة، لا تتم إلاَّ بقدرة الله التي لا يتعاصى عليها شيء، فإنَّ ما حصل يوم بدر لم يكن جارياً على الأسباب المعهودة المعتادة، وهنا يقف العبد مذهولاً حائراً أمام هذه القدرة العجيبة الخارقة، ويؤمن بأنَّ الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، ويتجه إلى خالق الأسباب وموجدها ليسأله ويؤمِّله، والله تعالى أعلم.

٩- قوله ﷻ: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٢﴾ (الأنفال).

بيان معنى غريب الآية:

«بِٱلْعُدْوَةِ»: شطُّ الوادي وشفيره(١).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تُذَكِّرُ هذه الآية المسلمين بحالة حرجة كانوا فيها، وتنبِّهُهم للطفٍ عظيمٍ حفَّهم من الله تعالى، وهو حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين، وكيف التقى الجيشان في مكان واحد من غير ميعاد، والمسلمون ليسوا مجهَّزين للقتال ولكنَّهم لن

(١) معالم التَّنزيل: ٥٢٨، ومدارك التَّنزيل: ٤١٤.

يتراجعوا، ولن يخذلوا رسول الله ﷺ، ولن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وإن كان خروجهم في الأصل لملاقاة العير لا لملاقاة النَّفير، هذا وركب قريش الرَّاجع من الشَّام أسفل من الموقع الذي التقى فيه الجيشان لأنَّهم كانوا سائرين في طريق السَّاحل، ولو تواعدوا لاختلفوا ولما كانت هذه الصُّورة المرسومة رسماً عجيباً، ففصَّلت هذه الآية هذا اللِّقاء بدقَّة لإحضاره في ذكرهم وتصويره في أذهانهم، ولما يلزمه من شكر نِعمة الله عليهم، وحُسْنُ الظَّنِّ به سبحانه والاعتماد عليه، أراد الله ذلك ليقضي أمراً كان مفعولاً وهو تحقيق وإنجاز وعده للمسلمين بالنَّصر على المشركين، ليُذْهِبَ شوكة الشِّرك وأهله، ويُقَوِّي شوكة الإيمان وأهله(١).

وأمَّا مناسبة ختمها بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإنَّ ما قيل في يوم بدر من الفريقين وما قبل القتال غير خافٍ على الله، سمع ما قاله كل فريق، سمع ما قاله المسلمون من تأييد لرسول الله ﷺ حين استشارهم، وسمع كلامهم الذي سَرَّ النَّبيَّ ﷺ، وسمع دعاءهم لله واستغاثتهم فأجابهم، وسمع مقولات المشركين الفاجرة التي كانت تتهدَّد وتتوعَّد باستئصال نبتة الإيمان الجديدة التي ظهرت في الأرض، «عَلِيمٌ» بما يجول في خواطرهم من الأحاديث غير المسموعة، عليم بما يصلح عباده المؤمنين، عليم بما يُخزي به الكافرين، فقضى وقدَّر هذا اللِّقاء الفريد من نوعه، والله تعالى أعلم.

١٠- قوله ﷻ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

امتنَّ الله على عباده المؤمنين يوم بدر، وأيَّدهم بأسباب من عنده سبحانه، منها أنَّه أرى النَّبيَّ ﷺ في المنام جيش المشركين قليلاً في عدده، فأخبر النَّبيُّ ﷺ أصحابه برؤياه، فتشجَّعوا لملاقاة عدوِّهم لعلمهم أنَّ هذه الرؤيا صادقة، لأنَّها من النَّبيِّ ﷺ، ورؤيا الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وحي، ولقد كانت هذه الرؤيا صادقة

---

(١) التَّحرير والتَّنوير: ١١١/٩.

في دلالتها الحقيقة، فلئن كان المشركون كثيراً عددهم، فإنَّه قليلٌ غناؤه، قليل وزنه في المعركة، خاوية قلوبهم من الإدراك الواسع، والإيمان الدَّافع، والزَّاد النَّافع، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، رحمة من الله بعباده من أهل بدر أن أرى النَّبيَّ ﷺ هذه الرؤيا، لتطمئنَّ قلوبهم ويتشجَّعوا، ولو أراهم النَّبيَّ ﷺ على حقيقة عددهم في الكثرة لفشلوا ولتنازعوا على الالتحام أو الإحجام، ولكنَّ الله سبحانه سلَّم المسلمين من أسباب الفشل والهزيمة، ثمَّ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أُكِّدت هذه الجملة التَّذيليَّة بـــ«إنَّ»؛ لأنَّ الآية تتكلَّم عن أمر من أمور الخفاء الذي لا يعلم حقيقته وما يؤول إليه إلاَّ الله وحده، وأضمر لفظ الجلالة «إِنَّهُۥ» لما يناسب السِّياق من الحديث عن هذا الأمر الخفي من الرؤيا، وأثرها المعنوي على نفوس المسلمين، ولتجنُّب التِّكرار، فقد سبقها قريباً قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾، وذات الصُّدور هي الأحوال المصاحبة لضمائر النُّفوس، والصُّدور مستقرُّها، عَلِمَ الله سبحانه قلَّة عدد المسلمين وما تُحدِّثهم به نفوسهم لو عرفوا كثرة عدوِّهم، وعَلِمَ تأثُّر النُّفوس بالمشاهدات واسترسالها معه، فأنعم عليهم بهذه الرؤيا فطمأنتهم ودفعتهم فكان ما كان بتوفيق الله وقدرته، والله تعالى أعلم.

١١- قوله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ (الأنفال).

بيان معنى غريب الآية:

﴿رِيحُكُمۡ﴾: الرِّيح هي الدَّولة للإنسان، يُقال: هبَّت ريح فلان، إذا دالت دولته[١].

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

جاءت هذه الآية مكمِّلة لما قبلها من ذكر أسباب النَّصر، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ (الأنفال)،

(١) الكشَّاف: ٤١٦.

فكانت أسباب النَّصر في الآيتين:

١. الثَّبات عند لقاء العدوِّ.

٢. الاتصال بالله بذكره كثيراً.

٣. طاعة الله ورسوله ﷺ.

٤. تجنُّب النِّزاع والخلاف.

٥. الصَّبر.

إذا دخل المسلمون ساحة القتال مع عدوِّهم وقد توفَّرت فيهم هذه الصِّفات كان النَّصر حليفَهم بتوفيق الله وإذنه، يثبتون عند لقاء عدوِّهم، إذ هو بدء الطَّريق، لأنَّ أثبت الطَّرفين أغلبُهما، وكلٌّ منهم يألم كما يألم الآخر، لكن المسلمين يرجون من الله الثَّواب بالجنَّة ما لا يرجوه غيرهم كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ (النساء)، ويذكرون الله كثيراً عند لقاء العدُّو، لأنَّ ذكرهم الله هو التَّوجيه الدَّائم للمؤمن، والتَّعليم المطَّرد الذي استقرَّ في قلوب المؤمنين، يذكرون الله الذي يُنزِّل عليهم من عنده النَّصر، لا من عند غيره، ويطيعون الله ورسوله ﷺ لكي يدخلوا ساحة القتال وهم قد أسلموا أنفسهم لله ابتداءً، وطاعة الله ورسوله ﷺ حاسمة لمادَّة النِّزاع الذي يُفضي بهم في خاتمة المطاف إلى الفشل.

ويصحب هذا كلَّه الصَّبر، وما حبْسُ النَّفس على طاعة الله ورسوله ﷺ إلاَّ الصَّبر، إذا صبروا على ذلك كلِّه حَظُوا بمعيَّة الله لهم، فمعيَّة الله ضمان للصَّابرين، وخير عُدَّة للسَّائرين، ولا شكَّ أنَّ من استشعر معيَّة الله له صبر حتَّى ينال هذا الضَّمان وهذه المعيَّة الشَّريفة، والله تعالى أعلم.

١٢- قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

تنهى هذه الآية الكريمة المسلمين عن سلوك هذا المسلك المشين الذي سلكه

جيش قريش بقيادة أبي جهل، فإنَّهم كانوا قد خرجوا من مكَّة لحماية العير القادمة من الشَّام بقيادة أبي سفيان، فلمَّا نجت العير وأفلتت أرسل أبو سفيان لأبي جهل يخبره أنَّهم قد نجوا، وأنَّه لا حاجة لقريش لمواصلة المسير إلى بدر، فحلف أبو جهل أنَّهم لا يرجعون حتَّى يَرِدُوا بدراً، فيقيموا بها ثلاثاً، وينحروا الجزور، ويسقوا الخمر، ويسمعوا القيان، وتسمع بهم العرب فلا تزال تهابهم أبداً[١]، وكأنَّ أبا جهل بمقولته هذه ينعى نفسه، فوردوا بدراً، فَسُقِيَ ومن معه من كؤوس المنايا لا من كؤوس الخمر، وناحت عليهم القيان بدلاً من الغناء المرتقب، وسمعت العرب عنه بما أخزاه الله في ذلك اليوم العظيم، قتله غلامان من الأنصار[٢]، ووضع ابن مسعود ﷺ رجله على عنق أبي جهل إهانة له وخزياً، واستأصل هو وقتلاه الذين جاؤوا لاستئصال العصبة المؤمنة، فأعزَّ الله دينه، ونصر جنده، وهزم عدوَّه وأخزاه، وتلك إحاطة الله بعلمهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أحاط بهم وبعملهم، فلا يفوته منهم شيء، ولا يعجزه من قوَّتهم شيء، فأدار الدَّائرة عليهم، ونصر عباده المؤمنين، وجعلَ يومَ بدرٍ يومَ فرقانٍ بين الحقِّ وأهله، والباطل وأهله، وبهذا فمناسبة ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ظاهرة، وفيها طمأنة من الله للمسلمين أنَّ الله محيط بعدوِّهم، وتهديد للكافرين ووعيد دائم مطلق لكلِّ من أراد دين الله بسوء، والله تعالى أعلم.

١٣- قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

---

(١) معالم التَّنزيل: ٥٣٠.

(٢) هما: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوِّذ بن عفراء، ينظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام: ٢٢٦/٢.

زين[١] الشَّيطان لقريش يوم بدر أعمالهم في الصَّدِّ عن سبيل الله، وقتال أولياء الله، ووعدهم أنَّهم لن يُغلبوا، وأنَّه جارٌ لهم، فلمَّا رأت كلُّ فئة منهما الأخرى نكص الشَّيطان على عقبيه، وتخلَّى عن جماعته، ونسيَ وعوده لهم، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، رأى الملائكة مدداً من الله لجنده المؤمنين، رجع مدبراً فارًّاً وهو يقول: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ خاف الله حين رأى جنده، رأى إبليس ما لا يقدر البشر على رؤيته، رأى الملائكة، وهو يعلم حين رآها أنَّها أمارة النَّصر لأولياء الله وعباده المؤمنين، وأنَّه الخذلان والخزي له ولأوليائه، فارتعب وفرَّ خائفاً تاركاً وراءه جنده ووعوده الزَّائفة.

ثمَّ خُتمت بقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، وهنا سؤال: هل هذه الجملة التَّذيليَّة جملة مستأنفة من كلام الله تعالى؟ أم أنَّها من تتمَّة كلام الشَّيطان اللَّعين؟

في ذلك قولان، والسِّياق يحتملهما، وعلى أي قول فإنَّها بيان لحقيقة أدركها الشَّيطان ولم يدركها أعداء الله من النَّاس، فإذا كان أدركها الشَّيطان فإنَّه يعلم حقيقة شدَّة عقاب الله لمن تمرَّد على الله وصدَّ عن سبيله، وهي وعيد من الله وتهديد لمن عادى أولياءه، وحرَّض عليهم أعداءهم وناصرهم، والله تعالى أعلم.

١٤- قوله ﷻ: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٤٩﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

أسلم جماعة من أهل المدينة وأهل مكَّة، لكن لم يتمكَّن منهم الإسلام ولم يرسخ[٢]، وحين خرجت قريش من مكَّة لملاقاة النَّبيِّ ﷺ في بدر ومن معه من المؤمنين لقتالهم خرجت الجماعة التي كانت في مكَّة مع قريش مكرهةً، ورأوا

(١) للمفسِّرين في تفسير حقيقة تزيين الشَّيطان لأوليائه كلام كثير واختلاف وروايات ليس من المناسب الحديث عنها هنا، وليس المقام لها، انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣٠٣/٢، و روح المعاني: ٢٩٥/١٠، وتفسير المنار: ٢٦/١٠.

(٢) تنوير الأذهان: ٢٩/٢.

المؤمنين قليلي العدد والعُدَّة، ورأوا كثرة المشركين، قال المنافقون من أهل المدينة والذين في قلوبهم مرض من الجماعة التي خرجت مع قريش: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾، يعنون المؤمنين أنهم مخدوعون في موقفهم، مغرورون بدينهم، واردون موارد التَّهلكة بتعرُّضهم لجحافل المشركين التي يرونها، انخدع المنافقون والذين في قلوبهم مرض بالأسباب الماديَّة المشاهدة، لأنَّهم لا يدركون حقيقة أسباب النَّصر وأسباب الهزيمة، وذُهِلُوا عن الله وقدرته ونصرته لجنده وإن تضاءل عدده أمام عدوِّه من المشركين الذين يصدُّون عن سبيل الله، فردَّ الله سبحانه على مقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، وهذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئنُّ إليه، وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه، وهذا ما يرجِّح الكفَّة، ويُقرِّر النتيجة، ويفصل في القضيَّة في نهاية المطاف، فليتعلَّق بالأسباب الماديَّة المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمشركون، وليتعلَّق بالله المؤمنون به الصَّادقون في إيمانهم، الواثقون بالله، ولينظر كلٌّ منهم ما ينتهي به مُتَعَلَّقُه، وجاء الرَّدُّ في الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، مؤكِّداً بعدَّة مؤكِّدات، منها:

١. اسميَّة الجملة.
٢. تأكيد الكلام بـــ«إنَّ».
٣. الإظهار في موضع الإضمار، فلم تقل الآية: ومن يتوكَّل على الله فإنَّه، بل أظهرت فقالت: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾.
٤. حذف جواب الشَّرط المتوقَّع عند السَّامع والاستغناء بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

وجواب الشَّرط المتوقَّع: ومن يتوكَّل على الله يظفر بالحماية والمنعة، ولكن مواجهة النفوس القلقة باسم الله مقروناً بأوصافه المثيرة للطمأنينة والثِّقة إشارة إلى أنَّ

المسلم في شتَّى أحواله ينبغي أن يركن إلى من هذا شأنه[١]، والعزيز الغالب الذي لا يُغلب، فمن طلب منه العزَّة والنُّصرة أعزَّه ونصره، الحكيم الذي يفعل بحكمته ما تحار في إدراكه الألباب في جعل جنده أقلَّ عدداً وعُدَّة، وعدوُّه أقوى سلاحاً وأكثر عدداً، ولكن غلب الفئة الكثيرة بالفئة القلية، والمناسبة بهذا ظاهرة، والله تعالى أعلم.

١٥- قوله ﷻ: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

شبَّهت الآية الكريمة أهل مكَّة الذين خرجوا لقتال النَّبيِّ ﷺ وأصحابه المؤمنين بآل فرعون والذين من قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم في عاداتهم المستمرَّة في الكفر بآيات الله والشُّرود عن الله وصراطه المستقيم، ومعاداة أنبيائه ورسله عليهم الصَّلاة والسَّلام ومحاربتهم، والله يدعوهم إلى الهدى لكنَّهم يأبون، فلمَّا كفروا بما آتاهم الله من نعمه، ورزقهم من فضله، وبما مكنَّ لهم في الأرض، وجعلهم خلائف فيها، وصدُّوا عن سبيل الله وقاتلوا أنبياءه ورسله أخذهم بالمهانة والعذاب، وهذه سنَّة الله الماضية التي لا تتخلَّف ولا تتبدَّل، فهذا هو المصير المحتوم الذي جرت به السُّنَّة من قديم، والله سبحانه لا يَكِلُ النَّاس إلى جزاف لا ضابط له، ولا إلى فلتات عابرة[٢]، إنَّما هي سنَّته في أعدائه، وما أصاب المشركين يوم بدر قد أصاب من قبلهم من آل فرعون، وقوم نوح، وعاد، وثمود وأشباههم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، هذه قوَّة الله لا يقف أمامها شيء يحول بينها وبين ما يريد، ووازن بين هذه القوَّة الإلهيَّة المطلقة، وبين القوَّة الموهومة التي أغرى بها الشَّيطان جنده يوم بدر فقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ﴾ (الأنفال:٤٨)، فكان من المناسب أن يؤتى بوصف الله سبحانه بالقوَّة هنا

(١) انظر التَّحرير والتَّنوير: ١٣٠/٩.

(٢) في ظلال القرآن: ١٥٣٥/٣.

بعد ذكر القوَّة المزعومة التي أخرجت جيشاً كافراً فلقي مصيره المحتوم(١)، ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أخذ الجيش الكافر يوم بدر أخذ عزيز مقتدر، وجعله عبرة وآية له سبحانه ولعباده المؤمنين، بل للنَّاس كافَّة أن يعلموا ذلك فلا يتجرَّأ أحد منهم على ما تجرَّأت به قريش ومن قبلها من الأمم، وأنَّ من فعل ذلك فمصيره نفس المصير المقرَّر، والله تعالى أعلم.

١٦- قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٣﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تشير الآية الكريمة إلى العقاب الذي أنزله الله سبحانه بجيش قريش يوم بدر الذي تقدَّم في الآية الكريمة: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ (الأنفال)، تشير إلى أنَّه لم يكن اعتباطاً أو جزافاً، وإنَّما من سُنَّة الله سبحانه في خلقه أنَّه لا يغيِّر عليهم شيئاً ابتداءً من نفسه، وإنَّما يغيِّر عليهم نعمته إذا غيَّروا، فيُقرِّر الله عدله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة منحهم إيَّاها إلاَّ بعد أن يغيِّرَ ما بهم ممَّا وهبهم من النِّعم التي لم يشكروها بل كفروا بها وجعلوها من الأدوات التي يحاربون بها الله ورسله عليهم الصلاة والسَّلام، ذلك بما سبق وبأنَّ الله سميع عليم، لا يسمع أقوالهم ودعاءهم غيرُ الله، يعلم ما يضمره النَّاس وما يعملونه، فيعاملهم بما يعلم منهم، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وهو الذي يسمع ويعلم ويؤاخذ، وفي تقديم صفة «سَمِيعٌ» على «عَلِيمٌ» إيماءٌ إلى أن التَّغيير الذي أحدثه المعاقبون متعلِّق بأقوالهم، وهو دعوتهم آلهة غير الله تعالى(٢)، والله أعلم.

---

(١) ملاك التَّأويل: ٢٩٣/١.

(٢) التَّحرير والتَّنوير: ١٣٦/٩.

١٧- قوله ﷻ: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

في هذه الآية الكريمة انتقال من بيان أحوال معاملة العدوِّ في الحرب، من وفائهم بالعهد، وخيانتهم، وكيف يحلُّ المسلمون العهدَ معهم إن خافوا خيانتهم، ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين، والأمر بالاستعداد لهم، انتقال إلى أحكام السَّلْم والمهادنة إن طلبها العدوُّ، وكفُّوا عن حالة الحرب[1]، فأمر الله المسلمين أن يقبلوا السلم من عدوِّهم إن طلبوه رغبة فيه لا لغرض آخر كالمخادعة ونحوها، فقال سبحانه لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ وأمره سبحانه بالتَّوكُّل عليه بعد أمره له بقبول طلب السَّلم فقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اِقبل السَّلْم واعتمد على الله، وثق به، وفوِّض أمورك إليه فإنَّ الله كافيك، ولا تخف أن يُظهروا لك السَّلْم وجوانحهم منطوية على المكر والكيد والخداع، ولذلك -والله أعلم- خُتمت الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أي يسمع منهم ما لا تسمع منهم، ويعلم منهم ما يخفى عليك، ولهذه الأمور الخفيَّة جاءت الجملة اسميَّةً مؤكِّدةً بـــ«إنَّ»، وبضمير الفصل «هو»، وبالقصر في قوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي أفاد معنى الكمال في السَّمع والعلم[2]، فإنَّ سمع الله لا يَدِقُّ عليه صوت أيَّاً كان في الخفاء، وعلمُ الله واسع محيط بكل شيء فلا يعزب عنه شيء، فهو سبحانه يعلم حقيقة نوايا العدوِّ في حالة طلب السلم، فيؤاخذهم بما يستحقونه، ويردُّ عليهم كيدهم في نحورهم إن أرادوا بها مكراً وكيداً، وفي ذلك طمأنة للنَّبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، والمناسبة بهذا ظاهرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) التَّحرير والتَّنوير ١٤٧/٩.

(٢) التَّحرير والتَّنوير: ١٤٨/٩.

١٨- قوله ﷻ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٣﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذه الآية الكريمة لها بالآيات التي قبلها صلة قويَّة، فما ذكرته من تأييد الله سبحانه لنبيِّه ﷺ من جملة صور التَّأييد التي أكرم الله بها محمَّداً ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٢﴾ (الأنفال)، فتكلَّمت عن النِّعمة الربَّانيَّة العجيبة، والمعجزة الباهرة من الله سبحانه التي أيَّد بها نبيه ﷺ، فإنَّ النَّاس كانوا قبل بعثته ﷺ أعداءً متنافرين متناحرين، وكانت قلوبهم شتَّى، وبأسهم بينهم شديد، وكان بينهم من الثَّارات والدِّماء والنِّزاعات ما يستحيل معه الالتحام، عصبيَّة وضغينة بحيث لا يأتلف معها قلبان، وكان إذا لُطِمَ رجُلٌ من قبيلة قاتلت عنه قبيلته كلها حتَّى يدركوا ثأره[١].

عداواتٌ بين الأوس والخزرج، وأيَّامٌ كانوا يتقاتلون بها في الجاهليَّة، عربٌ كانوا بطبيعتهم من الحميَّة والعصبيَّة والتَّهالك على الانتقام[٢]، اجتمع فيهم من دواعي الحقد والعداوة ما لو بذل أهل الإصلاح أموالاً كثيرة لا تفيد شيئاً في ذلك، أنساهم الله النِّقاط السوداء في تاريخهم فاتحدوا بالعقيدة التي خالطت القلوب فاستحالت مزاجاً من الحبِّ والألفة والمودَّة، وليس العجب في هذا فحسب، بل إنَّ كثيراً من أصحاب الدَّعوات التي يجمعون بها حولهم جماعة وأتباعاً، كثيراً ما يفعلون ذلك لأجل رغبات شخصيَّة، وأغراض نفسيَّة، ولكنَّ هذا التَّأليف الذي ساقه الله عزَّ و جلَّ نعمة لنبيِّه الكريم ﷺ كان لأجل المؤمنين أنفسهم، فهو لا يريد بذلك إلاَّ مصلحتهم ومنفعتهم وإنقاذهم من عداوات الجاهليَّة وعصبيَّاتها التي أنشبت فيهم أظفارها حتَّى استحكمت فاستحالت بعزَّة الله التي تصنع الأعاجيب محبَّةً وتآلفاً، وبحكمة الله التي لطفت فألَّفت بين قلوبهم على هذا النَّمط العجيب. والمناسبة بهذا ظاهرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) تنوير الأذهان: ٣٥/٢.

(٢) روح المعاني: ٣١٢/١٠.

١٩- قوله ﷻ: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

هذه الآية الكريمة ناسخة لما قبلها في حكمها[١]، وقد نزلت بعدها بمدَّة، كان في أوَّل الأمر على كل رجل في جيش المسلمين أن يثبت لعشرة لا ينبغي أن يفرَّ منهم، وكان ذلك على سبيل الوجوب، ثمَّ جاءت هذه الآية قائلة زمن نزولها: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾، وخفَّف الحكم السَّابق إلى أقل، فبدلاً من أن كان الواجب على الرجل في جيش المسلمين الثَّبات أمام عشرة صار الواجب الثَّبات أمام اثنين، وقد كان لأهل بدر الحكم السَّابق، فإنَّهم لا نظير لهم في صفحات التَّاريخ، ولذلك خُفِّفَ على من بعدهم، والغلبة للمؤمنين على عدوِّهم ليست مستمدَّة من العدد ولا من العُدَّة، وإنَّما هي من عند الله، كما جاء في أوَّل السورة: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾، فإذا صبر المؤمنون في ساحة القتال، والصَّبر أحد عوامل النَّصر كما قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأنفال)، إذا صبروا واستشعروا معيَّة الله لهم، وعلموا أنَّ الله ناصرهم ولن يخذلهم غلبوا عدوَّهم، ومناسبة ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ بهذا المعنى ظاهرة، والله تعالى أعلم.

٢٠- قوله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنفال).

---

(١) معالم التَّنزيل: ٥٣٤.

سبب نزول الآية:

استشار النَّبيُّ ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في أسارى بدر، فقال: أبو بكر ﷺ للنَّبيَّ ﷺ: قومك وعشيرتك، خلِّ سبيلهم، وقال عمر ﷺ: اقتلهم. ففاداهم رسول اللهﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾، فلقي النَّبيُّ ﷺ عمر ﷺ فقال: كاد أن يصيبنا في خلافك بلاء[١].

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

في هذه الآية الكريمة عتاب للنَّبيِّ ﷺ والمسلمين بشأن إطلاق أسارى بدر، ذلك لأنَّ معركة بدر هي المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين، والمسلمون في ذلك قلَّة، والمشركون كثرة، فكان المقصود تقليص عدد المشركين بالقتل، وهو الإثخان المذكور في الآية، وليعلم المشركون أنَّه ليس لهم في قلوب المؤمنين هوادة، ليعز الإسلام، ويذلَّ الشِّرك، والله يعلم الحكمة في الأمر بعدم قبول الفدية في هذا الحال، ولهذين السَّببين كره الله أن يأخذ المسلمون الفدية في أسارى بدر، ولهذا نزل العتاب، فمناسبة الختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ليعز أولياءه وأهله وينصرهم على الشِّرك وأهله، وفي العزَّة استغناء عن مثل هذه الأمور الدنيويَّة وهي الفدية[٢].

﴿حَكِيمٌ﴾ حيث كانت الحكمة تقتضي في هذه الحالة قتل أسرى المشركين وعدم قبول الفدية منهم[٣]، والله تعالى أعلم.

٢١- قوله ﷻ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لهذه الآية الكريمة صلة قويَّة بما قبلها من الآيات يتضح بها المعنى، وهي

---

(١) أسباب النُّزول: ٢٤٢.

(٢) التَّحرير والتَّنوير: ١٦٣/٩.

(٣) روح المعاني: ٣٢/١٠.

أنَّه لما نزل العتاب من الله سبحانه للنَّبيِّ ﷺ في قبول الفدية من أسارى بدر وإطلاقهم، وكان الله ﷻ يريد أن يقتلوا ليعز الإسلام ويذلَّ الشِّرك وأهله، ولكنَّ الله سبحانه سبق كتابه من قبل بأن لا يعذِّبهم لأنَّهم أهل بدر، فأمرتهم هذه الآية بعد ذلك أن يأكلوا ممَّا غنموا مطمئنَّة به نفوسهم، وأمرهم بتقوى الله شكراً لله الذي دفع عنهم العذاب والمؤاخذة بشأن أسارى بدر، ولتحثَّهم فيما بعد إلى العمل بما يريده الله سبحانه، وقد غفر لهم مخالفتهم هذه المرَّة، ورحمهم بعدم المؤاخذة، وبإباحة أكل الغنائم وبهذا تكون مناسبة ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ظاهرة، والله تعالى أعلم.

٢٢- قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ (الأنفال).

سبب نزول الآية:

نزلت في العبَّاس بن عبد المطَّلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وكان العبَّاس أُسِرَ يوم بدر، ومعه عشرون أوقيَّة من الذَّهب، كان خرج بها إلى بدر ليطعم النَّاس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام أهل بدر، ولم يكن بلغته النَّوبة حتَّى أُسِرَ، فأخِذَتْ معه، وأخذها رسول الله ﷺ منه، قال: فكلَّمت رسول الله ﷺ أن يجعل لي العشرين الأوقيَّة الذَّهب التي أخذها مني فداءً، فأبى علي وقال: أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا، وكلَّفني فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقيَّة من فضَّة، فقلت له: تركتني والله أسأل قريش بكفي والنَّاس ما بقيت، قال: فأين الذَّهب الذي دفعته إلى أمِّ الفضل قبل مخرجك إلى بدر، وقلت لها: إن حدث بي حدث في وجهي هذا فهو لك ولعبد الله والفضل وقُثَم؟ قال: قلت: وما يدريك؟ قال: أخبرني الله بذلك، فقلت: أشهد إنَّك لصادق، وإنِّي دفعت إليها بالذَّهب ولم يطَّلع عليه أحد إلاَّ الله، فأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّك رسول الله، قال العبَّاس: فأعطاني الله خيراً ممَّا أخِذَ منِّي -كما قال- عشرين عبداً كلهم يضرب بمال كثير مكان العشرين الأوقيَّة،

وأنا أرجو المغفرة من ربي(١).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أمرت هذه الآية الكريمة النَّبيَّ ﷺ أن يقول لأسارى بدر: إن يعلم الله في قلوبكم محبَّة للإيمان وإقبالاً وعزماً عليه، فإنَّ الله سبحانه سيعوِّضكم خيراً ممَّا دفعتم من المال الذي فديتم به أنفسكم، ويغفر لكم ما قد سلف، وهذا من مغفرة الله الواسعة، ورحمته العظيمة التي لا تتقاصر عن شيء، يغفر لكم ذنوبكم وجهلكم وما مضى منكم من الشِّرك والكفر، ويرحمكم بذلك، وبالتَّعويض خيراً ممَّا أخِذَ منكم، والمناسبة بهذا ظاهرة، والله تعالى أعلم.

٢٣- قوله ﷻ: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هذه الآية الكريمة تتمَّة لما قبلها من الآيات في تفصيل أحكام وأحوال أسرى بدر، فبعد أن ذكرت الحالة الأولى لهم: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (الأنفال:٧٠)، جاءت هذه الآية لتذكر الحالة الثَّانية وهي أنَّهم إذا أرادوا خيانة النَّبيِّ ﷺ والمسلمين كما فعلوا أوَّل مرَّة فإنَّهم لن يفلتوا من إحاطة علم الله بهم، وقد خانوا الله من قبل فأمكن جنده منهم وهم النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون، ومن عادة الأسرى أنَّهم لا يُطْلَقُون حتَّى يعاهدوا على عدم العودة لما فعلوه مرَّة أخرى، ولكنَّ كثيراً منهم يخونون فينقضون عهدهم، والله سبحانه محيط بهم، عليم بما في صدورهم ممَّا يضمرونه من النَّوايا فلا تخفى عليه، حكيم في معاملتهم على حَسَب ما يعلم منهم، وكما أمكن منهم في الأولى بحكمته وقدرته، يُمْكِن منهم في الثَّانية، والمناسبة بهذا ظاهرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) أسباب النُّزول: ٢٤٥، تفسير القرآن العظيم: ٢/٣١٣.

٢٤- قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

قسَّمت هذه الآية الكريمة المؤمنين في ذلك الزَّمان ثلاثة أقسام[١]، وهم:

١. مهاجرون، خرجوا من ديارهم بأنفسهم وأموالهم، وجاهدوا في سبيل الله.

٢. أنصار، آووا من هاجر إليهم ونصروهم.

٣. مؤمنون لم يُهاجروا من ديارهم.

فأمَّا القسم الأوَّل والثَّاني فإنَّ بينهم ولاية أطلقها الله سبحانه فشملت كلَّ شيء حتَّى المواريث، وبقي هذا الحكم حتَّى نُسِخَ بأحكام المواريث المفصَّلة في سورة النِّساء[٢]، وأمَّا القسم الثَّالث فليس له ولاية مع القسمين السَّابقين، لكن إن أوذوا في دينهم من المشركين وطلبوا من المهاجرين والأنصار النُّصرة فواجب عليهم أن يُناصروهم لولاية الدِّين التي جمعت بينهم لا لولايتهم هم، إلاَّ إنْ طلبوا النُّصرة على قوم بينهم وبين المهاجرين والأنصار ميثاق فيجب عليهم ألاَّ يُناصروهم في هذه الحالة لأنَّهم لا يتحمَّلون تبعاتهم إذا لم يُهاجروا إليهم، ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، تحذيراً للمسلمين لئلاَّ يحملهم العطف على الذين استنصروهم ولم يُهاجروا فيقاتلوا معهم قوماً بينهم وبين المسلمين ميثاق، وبمثل هذا الإنذار الإلهي تمتاز الأحكام السِّياسيَّة الإسلاميَّة على ما سواها بالعدل والحق والوفاء بالعهود والمواثيق[٣]، والمناسبة ظاهرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/٣١٤.

(٢) في الآيات: (١١، ١٢، ١٧٦).

(٣) تفسير المنار: ١٠/١٠٠، والتَّحرير والتَّنوير: ٩/١٧٢.

٢٥- قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الأنفال).

بيان معنى الآية، ومناسبة ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾.

بعد أن ذكرت الآيات السَّابقة لهذه الآية أقسام المؤمنين الثَّلاثة(١)، والقسم الرَّابع وهو الكافرون(٢)، وذكرت حكم كلٍّ منهم، أردفت هذه الآية فألحقت بالأقسام السَّابقة قسماً، ألا وهو الذين تأخَّر إسلامهم وإيمانهم، وكان من المناسب أن يُذكروا هنا لأنَّ التَّفصيل السَّابق في الآيات مثار تساؤل في نفوس السَّامعين عن شأن من أسلم وآمن فيما بعد، فجاءت هذه الآية لتجيب عن هذا التَّساؤل، وألحقت هذا القسم بأحكام القسمين الأوَّل والثَّاني، فلهم من الولاية والنُّصرة ما للقسمين الأوَّل والثَّاني، قال سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فآصرة الرِّحم حقُّها في الولاية والنَّصرة ثابت وبعضهم أولى ببعض، وخُتمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾، فالله سبحانه لعلمه المحيط بكل شيء الذي لا يخفى عليه شيء، أعلم أن لآصرة الرَّحم حقّاً في الولاية لم يمنعه مانع معتبر في الشَّرع، وعلم الله أن إثباته رفق ورأفة بالمسلمين(٣)، وعلم الله أحوال النَّاس في الإيمان والكفر، فقسَّمهم كما سبق، وأعطى كل قسم حكمه(٤)، ومناسبة ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ ظاهرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾ (سورة الأنفال).

(٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ (سورة الأنفال).

(٣) التَّحرير والتَّنوير: ١٧٨/٩.

(٤) مدارك التَّنزيل: ٤٢٣.

الخاتمة

في هذه الخاتمة أبرز ما توصَّلت إليه من النتائج في هذا البحث:

١- تذييل الآيات القرآنيَّة بأسماء الله وصفاته من الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

٢- ما من آية في كتاب تُخْتَم باسم من أسماء الله وصفة من صفاته إلاَّ وبين التَّذييل ومضمون الآية ترابط في المعنى، لأنَّ عدم التَّرابط في الكلام خلل في التَّركيب، و القرآن الكريم منزَّهٌ عن أي خلل أو نقص.

٣- تتفاوت المناسبات الرَّابطة بين أسماء الله وصفاته ومضامين الآيات وضوحاً وغموضاً، فمنها ما هو واضح قريب المعنى سهل المأخذ، ومنها ما يحتاج إلى مزيد تأمُّل وتدبُّر.

٤- يعتبر تذييل الآيات بأسماء الله وصفاته إيجازاً لمضمون الآية، وعرضاً للمحصِّلة، وبياناً للغاية.

٥- قد يكون ختم آية بأسماء الله وصفاته ليس تذييلاً للآية وحدها فحسب، ولكنه بجملة من الآيات سبقت للحديث عن موضوع واحد.

٦- لا ينحصر تذييل الآيات في أسماء الله سبحانه وصفاته، إنَّما هو صورة واحدة من صور التَّذييل، وعليه فإنَّ هذا الأسلوب القرآني متعدِّد الصُّور، واسع الدَّلالة، ونحن في حاجة إلى دراسة كافَّة الصُّور والدّلائل.

٧- يُعد دراسة التَّذييل في القرآن الكريم أيًّا كان نوعه ضمن دراسة تفسير القرآن الكريم، وله في هذا الميدان أهميَّة كبرى لِما له من أثر واضحٍ بيِّن في فهم آيات الكتاب العزيز.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

قائمة المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدِّين السِّيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمَّد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢. أسباب النُّزول، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

٣. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدجين محمَّد بن عبد الله الزَّركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمَّد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٤. التَّحرير والتنوير، لسماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمَّد الطَّاهر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، مؤسسة التَّاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٥. تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدِّمشقي (ت٧٧٤هـ)، مؤسسة الكتب الثَّقافيَّة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

٦. التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»، للإمام فخر الدِّين محمَّد بن عمر بن الحسين التميمي البكري الرَّازي الشَّافعي (ت٦٠٤هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٧. تفسير المنار، للشيخ محمَّد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ)، تعليق وتصحيح سمير مصطفى رباب، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

٨. تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، للشيخ إسماعيل حقي البروسوي (ت١١٣٧هـ)، اختصار وتحقيق الشيخ محمَّد علي الصَّابوني، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ.

٩. دراسات في التَّفسير الموضوعي، للدكتور زاهر بن عواض الألمعي، مكتبة الرُّشد، الرِّياض، ط٢، ١٤٢٢هـ.

١٠. ديوان النَّابغة الذُبياني، اعتنى به وشرحه: حمدُو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

١١.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلاَّمة أبي الفضل شهاب الدِّين السَّيِّد محمود الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠هــ)، تحقيق الشيخ محمَّد أحمد الأمد، والشِّيخ عمر عبد السَّلام السَّلامي، دار إحياء التُّراث، بيروت، ط١، ١٤٢٠هــ.

١٢.سُنن الدَّارمي، دار الفكر، مصر، ١٣٩٨هــ.

١٣.سيرة ابن هشام «السِّيرة النَّبويَّة»، لأبي محمَّد عبدالملك بن هشام المعافري، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمَّد معوض، والدكتور فتحي حجازي، مكتبة العبيكان، الرِّياض، ط١، ١٤١٨هــ.

١٤. الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزَّمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هــ)، اعتنى به وعلَّق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هــ.

١٥.لسان العرب، للإمام محمَّد بن مكرَّم الأنصاري المعروف بابن منظور (ت٧١١هــ)، دار إحياء التُّراث العربي ومؤسسة التَّاريخ العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٣هــ.

١٦.مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل، للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسفي (ت٧١٠هــ)، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢١هــ.

١٧.معالم التنزيل، لأبي محمَّد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦هــ)، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٣هــ

١٨.ملاك التَّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتَّعطيل في توجيه المتشابه اللَّفظ من آي التَّنزيل، لأحمد بن إبراهيم بن الزُّبير الثَّقفي العاصمي الغرناطي (ت٨٠٧هــ)، تحقيق سعيد الفلاَّح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٣هــ.

References

- *Al-Almaii, Zahir Bin Awadh. Studies in Objective Interpretation. 2nd Edition. Riyadh: Rushd Library, 1422 A.H.*
- *Al-Baghawi, Abi Mohammed Al-Hussein Bin Masaud (Died 516 A.H.). Maalim Al-Tanzeel. 1st Edition. Beirut: Dar Ibn Hazm, 1423 A.H.*
- *Al-Baghdadi, Abi Al-Fadhl Shihab Al-Din Sayyid Mahmood Al-Aloosi (Died 1270 A.H.). Rawh Al-Maani fi Tafsser Al-Quran Al-Atheem Wal Sabia Al-Mathani. Investigated by Sheikh Mohammed Ahmed Al-Amid and Sheikh Omar Abdul-Salam Al-Salami. 1st Edition. Beirut: Dar Ihyaa Al-Turath Al-arabi, 1420 A.H.*
- *Al-Brusawi, Sheikh Ismael Hakki (Died 1137 A.H.). Tanweer Al-Athhan min Tafseer Rawh Al-Bayan. Summarized and Investigated by Sheikh Mohammed Ali Al-Sabooni.1st Edition. Damascus: Dar Al-Kalam, 1408 A.H.*
- *Al-Dimashki, Imam Hafiz Emad Al-Din Abi Al-Fidaa Ismael Ibn-Katheer (Died 774 A.H.). Interpretation of Holy Quran. 1st Edition. Beirut: Al-Kutub Al-Thakafiya Establishment, 1413 A.H.*
- *Al-Gharnati, Ahmed Bin Ibrahim Bin Al-Zubeir Al-Thakafi Al-Asimi. Malak Al-Taaweel Al-Khatia Bithawi Al-Ilhad Wal Taateel fi Tawjeeh Al-Mutashabih al-Lafdh min Ay Al-Tanzeel. Investigated by Saed Al-Fallah. 1st Edition. Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islami, 1403 A.H.*
- *Al-Khawarizmi, Abi Al-Kasim Jar Allah Mahmooed Bin Omar Al-Zamakhshari (Died 538 A.H.). Al-Kashaf an Hakaik Al-Tanzeel wa Oyoon Al-Akhaweel fi Wujuh Al-Taaweel. Maintained and Commented on by Khalil Maamoon Shiah. 1st Edition. Beirut: Dar Al-Maarifa, 1423 A.H.*
- *Al-Maafiri, Mohammed Abdul-Malik Bin Husham. Ibn Husahm's Prophet Mohammed's Biography. Investigated by Adil Ahmed Abdulmawjud, Ali Mohammed Moawadh and Fathhi Hijazi. 1st Edition. Riyadh: Al-Odeikhan Library, 1418 A.H.*
- *Al-Nasfi, Imam Abdullah Bin Ahmed Bin Mahmood (Died 710 A.H.). Madarik Al-Tanzeel wa Hakaik Al-Taaweel. 1st Edition. Beirut: Dar Al-Maarifa, 1421 A.H.*
- *Al-Shafi'i, Imam Fakhr Al-Din Mohammed Bin Omar Bin Al-Hussien Al-Tamimi Al-Bakri Al-Razi (Died 604). Al-Tafseer Al-Kabeer "Mafatih Al-Gheib". 1st Edition. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiya, 1421 A.H.*
- *Al-Soyoti, Al-Hzfiz Jalal-Aldin (Died 911 A.H.). Mastery in the Quranic Sciences. Investigation: Mohammed Abu Al-Fadhl. Al-Asriya Library, Beirut, 1408 A.H.*
- *Al-Thubyani, Al-Nabighah. Al-Nabighah Al-Thubyani's Divan. Maintained and Explicated by Hamdu Tammas. 1st Edition. Beirut: Dar Al-Maarifa, 1424 A.H.*

- *Al-Wahidi, Imam Abi Al-Hasan Ali Bin Ahmed (Died 468 A.H.) Asbab Al-Nuzul. A Study and Investigation by Kamal Basyooni Zaghlool. Dar Al-Kotob Al-Ilmiya: Beirut.*
- *Al-Zarkashi, Imam Badr Al-Dajin Mohammed Bin Abdullah (Died 794 A.H.). A Demonstration in the Quranic Science. Investigated by Mohammed Abu Al-Fadhl. Dar Al-Ma'arifa: Beirut, 1408 A.H.*
- *Ibn Ashoor, Ustath Imam Sheikh Mohammed Al-Tahir (Died 1393 A.H.). Al-Tahrir wal Tanweer. 1st Edition. Beirut: Arabic History Establishment, 1420 A.H.*
- *Ibn Mandhur, Imam Mohammed Bin Mukarram Al-Ansari (Died 711 A.H.). Lisan Al-Arab. 3rd Edition. Beirut: Dar Ihyaa Al-Turath Al-arabi wa Muasasat Al-Tarikh Al-Arabi, 1413 A.H.*
- *Ridha, Sheikh Mohammed Rashid (Died 1354 A.H.). Al-Manar Interpretation. Comment and Correction by Samir Mustafa Rabab. 1st Edition. Beirut: Dar Ihyaa Al-Turath Al-Arabi, 1423 A.H.*
- *Suana Al-Darami. Egypt: Dar Al-Fikr, 1398 A.H.*